

راهنية القيم الصوفية

The relevance of Sufi values

د. محمد الغريسي (تونس)

باحث بمدرسة الدكتوراه، جامعة الزيتونة – تونس

ghrissimohamed22160187@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/1/16 تاريخ القبول: 2025/12/02 تاريخ النشر: 2025/12/04

ملخص:

تستمدّ القيم الصوفية أهميتها من قدرتها على إعادة بناء الإنسان من الداخل، فهي ليست مجرد تعاليم زهدية، بل هندسة روحية تُعيد ترتيب العلاقة بين الذات والعالم. في زمنٍ يهيمن فيه منطق السرعة والاستهلاك، تمنحنا الصوفية إيقاعاً آخر للحياة؛ إيقاعاً يسترّد فيه الوعي حضوره، ويستعيد القلب قدرته على التمييز بين ما ينفع وما يسطع فقط على السطح. إن راهنية القيم الصوفية تكمن في أنها تُعلّم الإنسان كيف يكون فاعلاً من دون أن يفقد رفقته، وكيف يحيا بين الناس من دون أن يتنازل عن نور باطنه. فهي تدعو إلى التحزّر من ضجيج الأنا عبر مجاهدة الكبر، والتخلص من قسوة العالم عبر تفعيل الرحمة، وتجاوز هشاشة العلاقات عبر إقامة محبةٍ لا تُلغي العقل بل تهذبّه. وفي عالمٍ متشظّ تننازع فيه الهويات والصراعات، تكشف الصوفية عن معنى آخر للوجود: أن تكون حاضراً بكليّتك، متصالحاً مع ضعفك، وقادراً على رؤية الجمال في ما قد يمرّ عليه الآخرون مروراً عابراً. إنها قيم تُعيد تشكيل الإنسان كمشروعٍ مستمرٍّ للاكتمال، لا كموضوع مغلق. ولذلك، فإن الصوفية ليست ملاذاً هارباً من الواقع، بل عمقاً جديداً لفهمه، ونفساً يمنح العالم إمكانيةً أخرى لأن يُعاش بسلام ووعي ورحابة.

Summary:

Sufi values derive their significance from their ability to rebuild the human being from within; they are not merely ascetic teachings, but a spiritual architecture that reorganizes the

relationship between the self and the world. In an age dominated by speed and consumption, Sufism offers us a different rhythm of life—one in which awareness regains its presence and the heart recovers its capacity to distinguish what is truly beneficial from what merely dazzles on the surface. The contemporary relevance of Sufi values lies in their ability to teach a person how to act without losing tenderness, and how to live among others without abandoning the inner light. They call for liberation from the noise of the ego through humility, for softening the harshness of the world through compassion, and for overcoming the fragility of human relations through a love that does not negate reason but refines it. In a fragmented world torn by identities and conflicts, Sufism reveals another meaning of existence: to be fully present, at peace with one's vulnerability, and capable of perceiving beauty where others might simply pass by. These are values that reshape the human being as a continuous project of becoming, not a finished object. Thus, Sufism is not an escape from reality, but a deeper way of understanding it—a breath that offers the world another possibility to be lived with serenity, awareness, and expansiveness.

مقدمة:

مثل التصوف موضوعا خصباً لدراسات إنسانية واجتماعية عديدة ومتنوعة، وهو مجال اهتمام الأدباء النقاد وأرباب اللغة والفقه والفلسفة والأنثروبولوجيا وغيرهم من أعلام الفكر وهي بلا ريب اهتمامات مهمة أثرت المكتبات العربية الإسلامية والغربية بمدونات لا تحصى من حيث الموضوع ومن حيث طبيعة المقاربة وأهدافها ومن حيث اللغة واختلافها ... فلم يبق موضوع التصوف حكراً على الفكر العربي الإسلامي فلقد اهتم به الغربيون أيما اهتمام وأفردوه بالجمع والتدوين والتحقيق والدراسة والترجمة. وقد بدا ذلك جلياً في كتابات عدد مهم ممن طرّقوا فضاء الثقافة العربية الإسلامية من باب التصوف فدرسوه وتعمّقوا في مباحثه فكان للتصوف أثراً في حياتهم ونفوسهم. ومن هنا يحاول هذا البحث مساءلة بعض المحطّات من التجربة الصوفية وما تثيره من إشكاليات على المستوى الإيتيقي بل على

المستوى الاجتماعي السياسي وغيرها من حقول المعرفة. فما معنى التصوّف؟ و فيم تتمثّل الأبعاد الإيتيقية و السياسيّة والاجتماعيّة للتّجربة الصوفيّة في وقتنا المعاصر؟

أوّلا: تعريفات التصوّف الأخلاقيّة

أفرد الباحثون مصطلح التصوّف بتعريفات مختلفة على المستوى اللّغويّ و كذلك الاصطلاحيّ فكان من نتائج ذلك مدوّنات ضخمة اتصّلت بأبحاثها بهذا الحقل المعرفي و قد بذل المتقدّمون و المتأخرون الوسع في تحقيق موضوعات هذا الفنّ و لعلّ ذلك يرجع إلى خصوبة هذا الميدان من جهة و كذلك الهاجس الذي كان يحرك هؤلاء لطرق مباحث التصوّف وما يدور في فلكه من مضامين أخلاقيّة و قيمية بل و اجتماعيّة وسياسيّة و هكذا تعدّدت تعريفات مصطلح التصوّف و تباينت كمّا و كيفاً؛ حيث بوّها بعضهم إلى تعريفات بسيطة و أخرى مركّبة (الشبي كامل مصطفى، 1997) و لا يخفى ما في ذلك من صعوبة فرضتها طبيعة التّجربة الصوفيّة القائمة على الدّوق، و من هذه التّعريفات على سبيل الدّكر لا الحصر؛

❖ قول أبو حفص الحداد (ت264هـ/877م): "التصوّف تمام الأدب". (عرفان

عبد الحميد، 1993، ص163)

❖ قول أبي الحسن النوري (ت295هـ/908م)¹: "التصوف السكوت عند العدم و الإيثار عند الوجود". وقوله أيضاً: "التصوّف الحرية والكرم وترك التكلّف والتمسك بالسّخاء".

❖ وقول ممشاد الدينوري (ت299هـ/912م)²: "أحسن الناس حالا من أسقط عن نفسه رؤية الخلق وكان صافي الخلوات لسره راعيا، واعتمد في جميع أموره على من كان له كافيا واثقا بضمّانه". (الأصهباني، أبو نعيم،، 1974، 13/353)

⁽¹⁾ كان أبو الحسين أحمد بن محمّد النّوريّ من الطّبقة الثانية من الصوفيّة و من أصحاب الجنيد البغداديّ (ت298هـ/911م) و كذلك الحلاج (ت309هـ/922م) و هؤلاء و غيرهم وضعوا أسس التصوّف

الاصطلاحي فضلا عن قواعده و آدابه.

⁽²⁾ أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوّف في القرن الثالث الهجري

❖ كما روى أبو السراج عن محمد الجري أن التصوّف هو "الدّخول في كلّ خلق سني و الخروج من كلّ خلق دني". (عرفان عبد الحميد)

❖ و من هذا القبيل قولهم: "الصوفيّ كالأرض يطرح عليها كلّ قبيح و لا يخرج منها إلّا كلّ مليح". (القشيريّ، 1998، ص312)

❖ و ساوى بعضهم بين التصوّف و الزّهد ففي التّفريق بين التصوّف و الزّهد أرجع نيكلسون الزّهد إلى عوامل قويّة داخل الإسلام نفسه و إلى انتشار الشعور باعتزال العالم و الهرب من الدّنيا و ضجيجها و ويلاتها في القرن الأوّل، أمّا التصوّف فيرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام عملت ابتداء من القرن الثالث الهجري. (نيكلسون، أرنولد رينولدز، 1947، ص45)

ومهما يكن من أمر، فإنّ للتصوّف تعريفات عديدة ومتنوّعة ومن الصّعوبة بمكان أن نجد له تعريفا واحدا وموحّدا قادرا على تغطية كلّ أبعاده الدلالية والرمزية وما تشيعه عناصره الباطنية من ومضات ومقامات وحالات ومحطات وشطحات وجدانية وحوارات ذاتية باطنية وتحليقات وسفريات في اللاحدود من أجل البحث عن صفاء العقيدة والاتّصال والتّواصل مع الذات الإلهيّة، زد عليه أنّ ما يثير الاستغراب هو كثرة تعريفات التصوّف و اختلافها و مردّ ذلك هو تباين المشارب الثقافيّة و الاجتماعيّة و السياسيّة و قد ذكر الشيخ أحمد زروق أنّها بلغت الألفين تعريفا. (زروق، أحمد، 2005، ص4)

وقد لا يتسع المقام لمتابعة كلّ التعريفات ومناقشتها و الوقوف على دلالاتها عرفانيّا و رمزيّا ومن هنا، نعتقد إن هذه التعريفات بتعددتها وتنوعها و ثراء لغتها واتساع مساحة حجمها الدلالي، فهي تبقى نسبية وتكاد تكون قاصرة ومحدودة وعاجزة عن تقديم تعريف دقيق و جليّ للتصوف. و لهذا نوّكد أنّ الفعل اللغوي في مادة المصطلح الصوفيّ تضيق مساحته أمام شساعة الرؤية الروحانية والعرفانيّة للتجربة الصوفية. و من هنا نوّكد عجزنا عن الإلمام بحقيقة التصوّف و لهذا جاءت تعريفاته متباينة تارة و متقاربة تارة أخرى و مردّ هذه الضبابيّة في تحديد معنى التصوّف هو أنّه تجربة ذوقيّة أكثر من أن تكون تجربة علميّة، يضاف إلى ذلك عامل التآثر بالثقافات الأخرى

كاليونانية و الفارسيّة و الهنديّة التي حمل أصحابها حينما اعتنقوا الإسلام أفكارا و رؤى غريبة كوحدة الوجود و الإتحاد و الحلول و غيرها من الأفكار ما يجعلنا نخلص إلى أنّ تباين مصادر التصوّف يمثّل هو الآخر عاملا يحول بيننا و بين وضع تعريف دقيق و محدّد للتصوّف.

و أمام هذه التعريفات المتفاوتة و غير المحصورة ارتأينا أن نختار لأنفسنا تعريفا نسير على خطى ما يحتويه من عناصر وما تشيعه من أبعاد لهذا نتبّى تعريف الإمام الصوفي أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي (ت384هـ/994م) و صاحب كتاب التعرف على مذهب أهل التصوّف في مؤلّفه الموسوعي الشّهير التعرّف لمذهب التصوّف (الكلاباذي، 1994، ص5) حيث أسس تعريفه للتصوّف على ستّة معان مرتبطة فيما بينها ارتباطا وظيفيا حيث يقول: "قولهم لم سميت الصّوفية صوفية؟ . قال: قالت طائفة:

- 1-إنّما سمّيت الصّوفيّة صوفيّة لصفاء أسرارها ونقاء أثارها.
- 2-وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله.
- 3-وقال بعضهم: الصوفيّ من صفت معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته.
- 4-وقال قوم: إنّما سمّوا صوفيّة، لأنّهم في الصفّ الأوّل بين يديّ الله عز وجل بارتفاع همهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه. ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.
- 5-وقال قوم: إنّما سمّوا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصّفة الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ.
- 6-وقال قوم: إنّما سمّوا صوفيّة للبسم الصّوف."

و هكذا بيّن الكلاباذي في تعريفه للتصوّف تباين الاصطلاحات والأقوال وصعوبة إيجاد تعريف واحد جامع مانع لمصطلح التصوّف والذي يبقى في اعتقادنا تجربة روحية وروحانية باطنية وحركة شخصيّة متحوّلة تبعا لتحوّل حالات الوجود و الصّفاء لدى الصّوفيّ و تبعا لاختلاف رؤية الصّوفيّ إلى الله و إلى النّفس و إلى الإنسان و إلى الوجود ماديا كان أم معنويا؛ فالتصوف إذن هو الحركة نحو الله عن معرفة و فهم لمسؤولية الإنسان في الحياة، هذه الحركة تستلزم الخروج من سجن الأهواء إلى سجن الهوى، فالإنسان الذي يعيش لذاته هو المقهور بدوافع الحرص و الطمع، و

هو حبيس ذاته لا يخطو نحو طريق كماله بل قد غلبه الجانب الجسداني و حال بينه و بين ما هو روحاني... و مهما يكن من أمر فإنّ البحث عن تعريف موحد للتصوف يبقى أمر صعب المنال ، و ذلك لصعوبة فهم الظاهرة غير أنّه يبقى في اعتقادنا أنّ التصوّف ظاهرة دينيّة وثقافيّة و أدبيّة و نفسيّة و فلسفيّة واجتماعية و أنثروبولوجيّة تتراوح بين التّعقيد و البساطة و تكشف عن نفسها أحيانا و تغلق على نفسها أحيانا أخرى.

ثانيا: راهنيّة القيم الصوفيّة.

و لا ريب أنّ التصوّف أضفى ظاهرة ثقافيّة و نفسيّة و اجتماعيّة و أدبية و تاريخيّة و سياسيّة ... فهو ظاهرة عامّة؛ ومن هنا تأتي محاولاتنا لبحث تجلياته المختلفة خاصّة ما اتّصل منها بالأبعاد الاجتماعية والسياسيّة. و من هنا نوّكد أنّ شيوع التصوّف في بداياته مرده الفوضى السياسية و الفتن و القلاقل و الأزمات الاجتماعية و الاقتصادية التي ألقت بظلالها على السّاحة المجتمعيّة و ما صاحبها من قلق و مظالم ومفاسد و فسوق و مجون و فقر و جوع و تعسف من الحكام الذين ما انفكوا يضطهدون رعاياهم و يكتمون أفواههم؛ ومن هنا مال النّاس إلى حياة التقشّف و الزّهد والورع متّصلا بمواجهة السّلطة، و كان لهذا أثر عظيم في نشأة الطّرق الدينيّة و الاتّجاهات المذهبيّة و الأنساق الفكرية في الإسلام المبكّر كما كان له دور كبير في تنشيط حياة الزّهد عند بعض الصّحابة و التّابعين ... و من هنا يمكننا القول بأنّ الحركة الزّهديّة مثّلت إرهادا ضروريّا لظهور التصوّف كونه صيحة نقد و تقويم للحكّام و الأفراد الذين فشا فسادهم.

و من العوامل التي أدّت إلى ظهور نزعة زهديّة قويّة في القرن الأوّل و الثاني للهجرة يمكن أن نذكر:

❖ أنّ تعاليم الإسلام و خاصّة من خلال النّصوص التّأسيسيّة أكّدت قيمة الزّهد في الدّنيا والاعراض عنها و بيّنت لنا أنّ الدّنيا لعب و لهو و أنّ الدّار الآخرة هي الدّار الباقية، و إنّني أحسب أنّ بداية الزّهد والتصوّف كان منطلقها عوامل داخليّة متّصلة رأسا بنصوص القرآن و السنّة.

❖ أنه و بفعل الفتوحات الإسلاميّة شرقا و غربا اتّسعت الرّقعة و اتّصل المسلمون بغيرهم من الأمم والشعوب و لا نشكّ حينها أنّ الدّنيا قد فتحت أبوابها فزاد التّرف و البذخ أضف إليه المشكلات السياسيّة التي جدّت بفعل التنازع على الخلافة الأمر الذي حدا بالبعض إلى اعتزال الفتنة و الزّهد عمّا في أيدي النّاس و كان من أبرز هؤلاء سعيد بن جبير (عبدالرحمان رآفت الباشا، 1997، ص210) الذي بكى حال الأُمّة حتّى عمشت عيناه.

❖ أنه قد ظهرت أحداث فرقت المسلمين شيعا و أذهبت ربحهم و أضحى بأسهم بينهم كبيرا بل باتوا أحزابا كلّ حزب بما لديهم فرحون و كان كلّ حزب يناصر فريقا و ينتصر له بالأدلة الدينيّة و الظّاهر أنّ زهد هذه المرحلة كان زهدا عمليّا لا يعتمد أصحابه على النظريّات و القواعد بل جدّوا في الاقتداء بالسّلف الصّالح

و نحن إذ نوّكد أنّ تصوّف كان ظاهرة لا يفوتنا تأكيد أنّ بداياته الفكريّة و السياسيّة قد تزامنت مع حركات شدّة و قساوة انتهت في كثير من الأحيان بنهايات دمويّة و مأساويّة راح ضحيتها بعض أعلام الصوفيّة ممّن كان قدرهم أن يعيشوا و يحيوا حياة جهاد فكانوا عبّادا بالليل و مقاومون بالنهّار مقتدين بالرسول ﷺ ثمّ الصحابة ثمّ التّابعون عملا بما جاء في الخبر من أنّ خير القرون هو قرن الرّسول ثمّ الذي يليه ثمّ الذي يليه و من تمسّك بعدهم بالمنهج الإسلاميّ القويم في العقيدة و العبادة و إنّ أفضل الخلق بعدهم هم المقتدون بعلم و عمل الصّحابة. (مصطفى حلمي، 2005، ص52)

و يبدو أنّه قد طفت على السّطح ظروف جديدة في المجتمع الإسلاميّ عقب عهد الصّحابة و الخلفاء، و لا ريب أنّ هذه الطّروف قد دعت إلى أن يتّجه النّاس إلى حياة الزّهد تاركين مسرح الحياة العامّة نأيا بأنفسهم تأزّم الأحوال و اشتداد الصّراع بعد الحادث المأساويّ المتمثّل في مقتل الخليفة الثالث في مشهد قاس بين أتباع عليّ و معاوية و ابجاس الفرق بين صفوف المسلمين خاصّة بعد موقعة صفّين. (الغريسي، محمّد، 2023).

و هكذا فالفكر الصوفي هو فكر ثوري متمرد ، فلقد عاش محملا بحالات من اليقظة و الحذر من جهة ، ومن جهة أخرى ، عاش أيضا محملا بهاجس الخوف من الآخر ، الآخر الشخصي الباطني النفسي مصدر السوء و الشرّ أي النفس السيئة و الشريرة التي يضعها الصوفي في الطرف المقابل له و النقيض ، فهي العدو المخيف الأول بامتياز ، فهي عدوة الإنسان نفسه لذلك يلزم التغلب و السيطرة عليها و ترويضها و كبح جماحها ثم الخوف من الآخر الكافر و الملحد الفاسق و الحاكم الظالم المعتدي و الفاسد.

هذا وقد مثّل التصوف ثقافية واجتماعية ضد الجماعة المتسلطة والتي تنامي فسادها، كما اعتبر ثورة في سبيل تحرّر النَّاسِ فرادى و جماعات و تحقيقا لهذا دعا إلى إصلاح الأفراد منطلقا من إصلاح عقولهم و ضمائرهم فضلا عن وازعهم الديني ثم تقويم المجتمع من أجل تأكيد عالميّة الرّسالة الإسلاميّة و هكذا وقفوا في وجه النَّاسِ حكاما و محكومين بعد أن فسدت أخلاقهم فجّدوا في وتربيتهم وتوجههم نحو القيم الفاضلة المستمدّة من الشريعة و عملوا على تنمية مداركهم وتصحيح نظرتهم تجاه مختلف شؤونهم ومن بينها القضايا العامّة إذ أن فساد الحكم والحاكم يعود في جزء منه إلي فساد المحكومين وفساد فهمهم للعلاقة الناطمة بين طرفي الحكم في أوجهها المختلفة" (عبد العزيز سلطان المنصوب، 2008، ص139)

ومهما كانت طبيعة الثورة الصوفية ضد السلطة والحكام، فإنها لم تكن عامة وشاملة كما لم تكن ثابتة في كلّ الأحوال ومع كلّ الحكام؛ إذ العديد من هؤلاء كانت تربطهم بالسلطة علاقة ودّ واحترام وتقدير. وقد ثبت تاريخيا أنّ بعض هؤلاء الحكّام كانوا يزورون الصوفية في خلواتهم وفي مساجدهم، كما طلب بعضهم بأن يدفنوا بجوار أضرحة بعض الصوفية. وإنّ تاريخ المغرب الإسلامي الديني والسياسي والثقافي يشهد على مثل هذه الحالات حيث كان سلاطينه يتردّدون و بكثرة زيارة الصوفية والأولياء الصالحين ويترجونهم بالدعاء لهم والحرص على الدفن بجوارهم والتقرب منهم ومنحهم مختلف العطايا بما في ذلك اقتطاع الأراضي وغيرها من مظاهر الاحترام، وذلك حرصا منهم على اكتساب ودّهم ورضاهم، و أنّ هذه السلوكيات ناتجة عن اعتقاد منهم بأنّ الأولياء يتمتّعون بمكانة سنيّة و خاصّة عند الله من الممكن أن

تساعدهم وتعينهم في أمور دنياهم وأخراهم بل لاكتساب ودّ الرعيّة عن طريقهم بالنظر إلى الاحترام الكبير الذي يتمتعون به من قلوبهم.(بوداود عبيد، 2003)

و من هنا نشير إلى أنّ مواقف رجال التصوّف إزاء مجتمعاتهم ظلّت تتحكّم فيها الظروف و القناعات الشخصيّة الأمر الذي يصعب معه إصدار أيّ حكم مطلق إزاء الظّاهرة بل و على التصوّف عموماً، و مع هذا نعتقد أنّ تشخيص علاقات المتصوّفة مع رجال السّلطة و الفقهاء و عامّة النّاس و تحديد مواقفهم من مختلف قضايا عصرهم فضلاً عن الأعباء التي اضطلعوا بها التي تبقى كفيلة بتحديد موقع أولئك المتصوّفة من الصيرورة التّاريخيّة.

كما أدرك المتصوّفة مهمّتهم الأخلاقية و التربيّة النّبيلة فأولوها عناية كبيرة واعتبروها من الأولويّات لإصلاح و تربيّة الفرد و الجماعة المسلمة و بناء مجتمع سليم وقوي و متماسك تغلب عليه قيم الخير و الصّلاح. و لهذا خصّص الصوفيّة دروساً للمسألة الأخلاقية و أفرادوا لها رسائل و كتب باتت تعدّ من أمّهات المصادر في العلوم الأخلاقية فاستثمروا العقيدة لمعالجة المسائل الأخلاقية فهم يعتبرون أنه لا حياة روحية دون حياة أخلاقية، وأن بناء الخلق الاجتماعي الذي يطبع الفرد بالسلوك القويم، ويعمل على إحياء الضمير و استشعار المسؤوليّة، و محاسبة النفس و مراقبة الله سبحانه و تعالى على الدوام، فهو من هذا المنطلق صاحب المثلية الخلقية و حامل لوائها، (منال عبدالمنعم، د.ت) و هذا من أسباب تخلّقهم و تعلّقهم بمقام الإحسان و أن يعبد المرء ربه كأنه يراه و هذا لا يحصل إلّا بالتخلّي عن مردول الصّفات و قبيح الأفعال و التحلّي بحميدها، و لا يبلغ الصوفي الكمال في السلوك إلّا إذا حسنت أخلاقه و تميز بالصّلاح و الفضل و النقاء و الورع.

و من هنا كانت قيم التصوّف ثورة نفسية و اجتماعية و يخوضها الصوفيّة من أجل إصلاح أحوال الناس و التصدّي لكلّ سلوك سيّء و سلبّي، فثاروا ضدّ ظواهر الكذب و الغشّ و الفساد و البخل و الجهل و الطّمع و الجشع و الكراهيّة و العداوة و الحسد و الحقد و البغضاء و السرقة و الظلم و الكفر و الإلحاد و الزندقة و غيرها من السلوكيات السيئة و السلبية؛ فلقد أوقف الصوفي حياته و علمه و ثقافته و طاقاته خدمة لتربيّة و أخلاق مريديه و أبناء قومه و حثّم على المبادئ و مكارم الأخلاق من

احترام ومحبة وتعاون وتعاطف وتضامن وتراحم وصدق تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى
بل تخَلَّقاً بأخلاق الله

بينت كتب التاريخ والمناقب العمل الجبار الذي قام به الصوفية عبر التاريخ
من أجل تربية الفرد تربية صالحة قائمة على العلم والمعرفة وكان شعارهم الثابت
والأزلي: "إذا علمت عرفت وإذا عرفت عبت" لأنَّ العبادة دون تربية ودون علم قد تؤدي
إلى الأمية والجهل والخلط والخطأ والانحراف؛ فكانوا دوماً وأبداً يربطون المسألة
الأخلاقية والتربوية بالعلم والمعرفة، ولهم في ذلك أقوال وحكم ومقامات في قيمة
العلم والأخلاق وحسن السلوك وصفاء العقيدة وصفاء المعاملات. وفي هذا الصدد
نذكر على سبيل المثال قول الشيخ عبد القادر الكيلاني متحدثاً عن العلم والعالم
والعمل الصالح مصنفاً الرجال حسب ما يملكون من طاقات ومؤهلات علمية
وقدراتهم وقابليتهم على العمل بها وعلى استثمارها من أجل حياة دينية ودنيوية
حسنة؛ فقد صنَّف الرجال إلى أربعة أصناف:

الأول: يمثله رجل عاص بلا علم ولا عمل، ليس له لسان ولا قلب.

الثاني: يمثله رجل له لسان بلا قلب، ينطق بالحكمة ويدعو إليها ثم لا يعمل
بها، يفر من طاعة مولاه وعبادته.

الثالث: يمثله رجل مؤمن ستر الله عن خلقه، فهو قلب بلا لسان، علامته
الصمت والانزواء والانفراد، وهذا الرجل لا سبيل لمعرفته أو الأخذ
عنه

والرابع: هو العالم العامل المدعو بالعظيم. فهو من قال فيهم الرسول ﷺ من
تعلم وعلم وعمل دعي في الملكوت عظيماً". (يوسف محمد طه،
1991، ص ص 28-29)

ولعل هذا التصنيف يؤكِّد أنَّ الفعل الصوفي فعل علمي ومعرفي بامتياز، ولا
يمكن الانخراط في صف الصوفية بدون قاعدة وأساس علمي متين وأصيل. كما يشهد
على ذلك أحد الرموز البارزة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي الشيخ أبو حامد الغزالي
حين حاول الانخراط في صف الصوفية: "ثم إنني لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت
بهمتي على الطريق الصوفية، وعلمت أن معرفة طريقهم لا تتم إلا بعلم وعمل... وكان

العلم أيسر عليّ من العمل، فابتدأت...بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل "قوت القلوب" لأبي طالب المكي وكتب الحارث والمحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ... وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية...".(نجوى قصاب، 1988-1989، ص65)

ومهما يكن من أمر، فإنّ الظاهرة الصوفيّة هي ظاهرة اجتماعيّة جماعيّة بامتياز، فالصوفي بخلاف ما اتّصف به من أنّه إنسان غير اجتماعي، بل هو محبّ ومحبوب وباحث عن الآخر ليترجم معه وعليه تصوفه من حيث الدعوة إلى الله و إلى التعليم و إلى التربية و إلى الإصلاح...و قد لا تتحقق هذه الرغبات إلا إذا ضمن لنفسه الاتصال و التواصل الاجتماعي...فالتصوّف مصدر من المصادر الأساسيّة الروحية للتنشئة الاجتماعيّة و التي يلمها القوّة و القواعد و السّلوک من أجل اندماج الفرد و التكيّف مع الجماعة الصّالحة عقيدة و سلوكا جماعيا و اجتماعيا و ثقافيا، و من هذا المنطلق تكون مهمة الصوفيّ الأساسيّة هي تهذيب الشخصية البشريّة من جميع جوانبها و طبعها بقيم ربّانيّة تحقيق بها الكمال الذاتي و السموّ الرّوحيّ.

و عليه فالظاهرة الصوفيّة هي ظاهرة اجتماعيّة بامتياز إذ تشكّل حقا خصباً يمارس فيه الصوفي شيخاً أو مريدا مهامه الروحيّة و الروحانيّة و الأخلاقيّة و التربيّة بامتياز أيضا و هي بحكم طابعها الاجتماعي والجماعي تضمن له القوة العرفانية و التفاعل المادي و المعنوي و السلوكي مع الله و مع نفسه و مع الآخرين.

كما تسعى حركة الصوفية إلى توطيد أواصر المحبة بين الإخوان و الرفقاء و تقوي روح التعاطف بينهم و تشيع فيهم أواصر الإخاء. فالصوفي معلم يروم تهذيب الفرد الذي لا يهتم إلا بنفسه و مصلحته ، فإذا هو يعاني خواء و جفاء عاطفي ، نتج عنهما شعور عميق بالحرمان من الصداقة و الأصدقاء المخلصين و الذي لا شك فيه إن هذه المناسبات بما فيها من لقاءات يسودها التعاون و مشاركة مادية و معنوية لها دور كبير في تقوية أواصر المحبة و التآخي .

و خلاصة القول ، فإن المسيرة العقائدية و النفسية و الاجتماعيّة و السياسيّة تبين و بكل وضوح بطلان تلك النعوت التي ظلت تلاحق الصوفية و تنعتهم بالسلبية و الانعزال في خلواتهم و الانقطاع عن الناس و عن المجتمع و عدم الإحساس بهموم

الفقراء والمظلومين وقطع العلائق الإنسانية والعيش بعيدا عن أعين الناس وعن أخبارهم والتفكير إلا في النفس تحت ضغط الأنا المتوحشة الطائشة والمتوهجة . إذن ، كيف يمكن الإساءة إلى هذه النخبة ونعتهم بالسحر والشعوذة والأمية والجهل والانعزالية ، نخبة تضم عددا من العلماء والفقهاء الذين تعدى صيتهم وأسمائهم الفضاء العربي الإسلامي ليشمل الإنسانية جمعاء والتي استفادت ولا زالت تستفيد من فكرهم ومن آدابهم ومن عرفانهم ، نخبة صنع أعمدها أقطاب أمثال أبي مدين شعيب الاشبيلي ، والشيخ محي الدين ابن عربي وابن القارض ، والجنيد ، وأبي يزيد البسطامي ، وسعدي الشيرازي والحسن بن منصور الحلاج ، وجلال الدين الرومي ، وعمر الخيام ، ورابعة العدوية ، وغيرهم من الرموز التصوف .

ومن هنا نؤكد أنه حان الوقت للفكر العربي المعاصر من أجل تحرير ظاهرة الصوفية من تلك الرؤية التقليدية السلبية والسالبة التي ظلت دوما وأبدا تسعى جاهدة من أجل سجن الصوفية في خلواتهم في صمت وخمول والتأسي عن متع الدنيا ولذاتها وشهواتها من مأكل وملبس وجاه ومال وسلطان. وقد وصل الحد ببعض الحقودين وخصوم التصوف والصوفية إلى نعت الرجل الصوفي بالانعزالي والانطوائي والمريض والمصاب بعقد نفسية ، فاقد الأمل وكارها للحياة وللناس وللمجتمع ...

ولا ريب أن العالم يعيش اليوم حالات من الفوضى والفتن والنزاعات والحروب الدامية والقاتلة ويعيش فيه ومعها الإنسان المعاصر ففي ظل هذه الحال المأساوية من اليأس والاعتراب والمعاناة من كثرة المظالم والمفاسد والماسي حيث فالموت والدمار والتخريب يلاحقه من كل الجهات وبكل المبررات الثقافية والعقائدية والمذهبية والإيديولوجية والسياسية والاقتصادية وحتى الانثنية. لقد فقد الإنسان إنسانيته في ظل التهاافت الاستعماري الجديد والذي راهن على نهب ثروات الشعوب الضعيفة واستغلالها واستغلال حقولها الاقتصادية وأسواقها لشركاته الكبيرة العابرة للقارات... وقد غابت ثقافة الحب والاحترام والمودة والتآخي والتضامن والحوار والتعايش السلمي لتحل محلها ثقافات العدا والاستعمار والحروب والصراع والصدام في كل أشكاله وألوانه وحقوله ومصادره... فتم الإعلان عن فلسفة جديدة

رسمت حدود تضاريسها الفكرية والثقافية والإيديولوجية عدد من الصراعات؛ صراع الشعوب وصدام الحضارات وصراع الثقافات وصراع الديانات، وقد أنتج هذا الوضع إعلانات أخرى مزيفة مثل الإعلان عن نهاية التاريخ وموت الإنسان.

لقد عمت الفوضى والقتال والاقتتال بين الشعوب وحتى بين أبناء الشعب الواحد والعقيدة الواحدة... وانتشر الخوف وفقدت الإنسانية أمالها في الأمن والاستقرار في الحياة السلمية والنزهة والشريفة، كما فقدت أمالها في الإيديولوجيات وفي النظريات وفي المنظمات وفي الهيئات الأممية العامة والقومية والقطرية والتي كان بإمكانها صيانة الإنسان وحمايته و ضمان حقوقه في الحياة وفي التربية وفي التعليم وفي الصحة وفي العدالة مع شيء من الاحترام والعزة والكرامة... لقد تحولت هذه الهيئات إلى مصدر شر و إلى شاهد سلبى و سالب على هذه الوضعيّة و التي وجدت فيها القوة الداعمة لاحتلالات و اعتداءات شعوب على شعوب أخرى... فقد وجدت الدول العظمى فيها الدعم السياسي و إضفاء الشرعية على أعمالها و غطرسها و هكذا فقد العالم في إطار هذا التهافت السياسي و الإيديولوجي المتوحش الضوابط الأخلاقية والثقافية و الإنسانية و التي بإمكانها الحد من غطرسة و شراسة حيوانية القوى الاستعمارية الجديدة التي أوجدها النظام الاقتصادي الجديد .

و تأسيسا على ما سبق فإنّ اللغة الصوفية والمنظومة القيمية الصوفية بسموها ونبلها قد تكون البديل الروحي والروحاني والعرفاني والأخلاقي والثقافي والفكري الإنساني من شأنه أن يعيد للإنسانية صفاء ثقافتها ويمتّن علاقات أفرادها المختلفين عرقا و لونا ولغة و دينا.

و هكذا فإنّ فرص استدراك ما فات وما ضاع عن الإنسان المعاصر وعن شعوب العالم لا تزال قائمة وحية وخالدة بخلود الفعل الصوفيّ وما تزخر به منظومته الفكرية والعرفانية من قيم أخلاقية تحمي الإنسان وتحبه وتصون له ذاته في جو من المحبة والاحترام والخير والتضامن والتعايش. وقد أثبت الفعل الصوفي قوته وقدرته على ذلك عبر مسيرته التاريخية وفي كل الديانات السماوية التوحيدية...وقد أبلى صوفية الإسلام في هذا الصدد بلاء حسنا وذلك من خلال سياحاتهم العديدة عبر العالم داعين الناس إلى العقيدة الحسنة والصافية صفاء الذات الإلهية. وتشهد على ذلك الكثير من كتب التاريخ والعقيدة والمناقب. ... و لقد انطلق صوفية الإسلام عبر

العديد من القارات دون أن تحدّهم حدود جغرافية ... فإلّهم يعود الفضل في نشر الإسلام عند شعوب غير إسلامية بأسلوب حضاري روي روحاني سام ونبيل وهادئ وصاف وسلي كما يشهد على ذلك أحد الرّموز البارزة في المشهد الاستشراقي والذين أصيبوا بهاجس التصوف وهو الأستاذ لويس ماسنيون حين اكتشف التصوف عبر شخصية الحلاج والذي تعلق به وأحبه وعاشقه وحاول الانخراط في مسيرته المعرفية والروحانية، "انه بفعل التصوّف كان الإسلام ديناً دولياً وعاماً؛ إنه دوليّ بفضل الأعمال النقيّة التي قام بها المتصوّفة في زياراتهم لبلاد غير المؤمنين (الغرب) أي بفضل المثل الرائع الذي قدمه نساك وزهاد المسلمين من شيوخ الطرق الصوفية... والذين كانوا يتعلمون لغات الهند وسكان... الهند الشرقية ويندمجون في حياتهم، هذا المثل هو الذي هدى أولئك القوم إلى الإسلام ... وأنه عامّ لأنّ الصوفيّة هم أوّل من فهموا الأثر الخالد للدين الحنيف وهو وجود توحيد عقليّ طبيعيّ لجميع بني الإنسان". (صابر عبده أبازيد، 2004، ص 57)

ومن هذا المنطلق يكون حوار الشعوب والثقافات والحضارات والديانات قد وجد في الظاهرة الصوفية العامة والشاملة التي تضمن للعالم اجمع فاعلية أخلاقية قوية ومتينة وثابتة من أجل الترفع فوق القيود نحو السعي نحو الارتفاع الذي لن تعود العين منه تميز الحدود بين بلدان أو قارات معينة إنما ترى العالم بمجمله ككل وكلما ازداد العلو كلما صار الأفق أوسع. (حضرة عنايت خان، 2008، ص 27)

الخاتمة:

تعتبر منظومة القيم التي يتبناها الصوفيّ معرفيّاً وسلوكيّاً من أرقى وأنبّل وأسعى القيم التي عرفتها البشرية وهذا راجع إلى أثر القيم التربويّة القرآنيّة فكان الصوفيّ مشروعياً قيمياً عاليّ يؤسس لثقافة كونيّة ترفع الغبن على البشرية وتوطّد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين المخلوق والخالق وهذا لا يكون إلّا بإشاعة منظومة القيم النبيلة والسامية في ميادين المعرفة والأخلاق والتربية والاجتماع والسياسية فتتحرّر الإنسانيّة من الهويّات الضيقة إلى أفق إنسانيّ رحب قوامه الحب والإخاء والاحترام والحوار والتضامن والتعايش السليّ ونبتد العنف والتطرف

والإرهاب. وقد يضمن الصوفيّ بقيمه هذه حواراً بين الشعوب والثقافات والحضارات والديانات والتي تلتقي كلها حول حب الذات الإلهية الواحدة وسعادة ورفاه بني الإنسان وصيانة كرامة الإنسان الذي كرّمه الله وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلاً من أجل تحقيق مشروع الإستخلاف.

المراجع:

- (1) الشبيبي كامل مصطفى، صفحات مكثفة من تاريخ التصوّف الإسلاميّ، دار المناهل للطباعة والنشر والتّوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1997.
- (2) فتاح، عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصوفيّة و تطوّرها، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط1، 1993.
- (3) الأصهباني، أبو نعيم، حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، دار السعادة، مصر، 1974.
- (4) القشيريّ، الرّسالة القشيريّة، وضع حواشيه، خليل منصور، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط1، 1998.
- (5) نيكلسون، أرنولد رينولدز، في التصوّف الإسلامي و تاريخه، مجموع مقالات ترجمها أبو العلا عفيفي، القاهرة - مصر، 1947.
- (6) زروق، أحمد، قواعد التصوّف، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، 2005.
- (7) الكلاباذي، التعرّف لمذهب التصوف، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط2، 1994.
- (8) عبدالرحمان رافت الباشا، صور من حياة التّابعين، دار الأدب الإسلاميّ، القاهرة - مصر، ط15، 1997.
- (9) مصطفى حلمي، ابن تيمية و التصوّف، دار ابن الجوزي، الاسكندريّة - مصر، ط1، 2005.
- (10) محمّد الغريسي، تاريخ الإسلام السياسيّ من الحكومة النبوّيّة حتّى العصر العبّاسيّ الأوّل، مجمع الأطرش، تونس، ط1، 2023.
- (11) عبد العزيز سلطان المنصوب، إطلالة على الحضرة العلوانية، في ما وراء النص، أعمال الطبعة الرابعة الملتقى الدولي تصوف - ثقافة و موسيقى - المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان والتاريخ، الجزائر 2008.

- (12) بوداود عبيد، ظاهرة التّصوف في المغرب الأوسط ما بين القرن السابع والتاسع الهجريين (ق13-ق15م)، دراسة في التاريخ السوسيوي- ثقافي ، دار الغرب للنشر والتوزيع،، 2003.
- (13) منال عبد المنعم، التصوف في مصر والمغرب. منشأة المعارف ، الإسكندرية- مصر، د.ت.
- (14) يوسف محمد طه زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط1، 1991.
- (15) نجوى قصاب حسين. التفكير الاجتماعي عند العرب ، مطبوعات جامعة دمشق 1988-1989.
- (16) صابر عبده أبازيد :لويس ماسنيون وجهوده في الفكر الإسلامي .دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-الإسكندرية 2004.
- (17) حضرة عنايت خان:تعاليم المتصوفين-ترجمة إبراهيم استنبولي-دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع-دمشق ط2-2008.